الوحدة النحوية المتكلِّسة في العربية المُلْتبسة بنواسخ الابتداء (كان وأخواتها) أنموذجا

أ . م . د : تومان غازي الخفاجي
الدكتور : خالد كاظم حميدي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة الشيخ طوسي- (العراق)

ملخـــص:

يعنى هذا البحث بدراسة ظاهرة لغوية مستقلة سمّيناها (ظاهرة التكلس) وقوامها بحسب فرضية البحث التي سنثبتها بمعونة المنهج التاريخي والمقارن أنّ اللغة العربية في إحدى مراحل تغيرها تخلّت عن فعل الكينونة المساعد في جملتها الاسمية، ثم أعادت توظيف هذه الأدوات لأغراض بلاغية بعد أنْ فقدت معانيها الأصلية. وميّزتها اللغة من النواسخ بعدم مساسها بحركة أيّ من عنصري الجملة الاسمية.

وقد أخطأ النحو التقليدي في قياسها على بنية النواسخ ما أدّى إلى تعقيد دراستها وضياع معانيها، وقد اضطلع هذا البحث بحلّ هذه المشكلة، بفرضية علمية اضطلع البحث في إثباتها تجريبا واكتشف قوانين نظامها الذي تسير بموجبه لإنتاج المعنى المقامي المقصود وهو (التوكيد المطلق) الذي لا يحتمل الصدق والكذب بما يقرّب معاني جملتها الخبرية إلى معنى الجملة الإنشائية، ولكنّ بنيتها بنية جملة خبرية.

ABSTARCT:

This study deals with the linguistic phenomenon we call (the phenomenon of Stereotypie) and strength, According to research hypothesis we intend to prove with the help of the historical method and Comparative that the Arabic language in one of the stages of change Auxiliary verbs being in the sentence, and then re-employ these tools for the purposes of rhetorical having lost the original sense. The advantage of burners not to change any of the racist movement sentence. And erred as traditional grammar in measured on the familiar tools structure led to the complexity of the study and the loss of sense, has carried out this research to solve this problem, a scientific hypothesis has undertaken research in recognized experimentation and discovered its system which is going whereby for the production of meaning primarily laws which (absolute emphasis) which is not likely truth and lies including, inter alia, about the meanings of news reporting to the meaning construction sentence.

مقدمة :

أصبحت فرضية تغيّر اللغات من المسلّمات التي لا جدال فيها، ومن نتائج هذا التغيّر أنّ بعض الأدوات التي تتخلى عنها اللغة في إحدى مراحل تطورها، يمكن أنْ تُعيد توظيفها لإنتاج معانٍ أخرى، بعد أن فقدت معانيها الأصلية، ومن ذلك ما أطلقنا عليه: (الوحدات النحوية المتكلسة)، التي افترض البحث أنّها من بقايا الأفعال المساعدة التي تخلّت عنها العربية، وقد ساعد على اكتشاف هذا الافتراض المنهج التاريخي والمنهج المقارن إلى حدّ ما.

وقد ولّدت هذه الأدوات مشكلة في النحو التقليدي؛ لأنّ النحاة قاسوها بالنواسخ على الرغم من أنّها ظاهرة مستقلة، ولا تشابهها إلا من حيث الشكل الموهم. فالصيغة المتكلسة لا تنسخ ما بعدها ولا تغيّر حركة أيٍّ من المبتدأ والخبر من الرفع إلى النصب. وقد جعلنا عدم مساسها بالحركات الإعرابية علامة على الاختلاف مع النواسخ، وهو ما يعبّر عن: (التوكيد المطلق، الذي لا يقدر نقضه المخاطب) .

ومهمة هذا البحث محددة بدراسة ظاهرة التكلس الملتبسة بالنواسخ وتطبيق أحد أنواعها وهو: (كان وأخواتها) المتكلسات، بحسب ما جاء في العنوان .

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه على مبحثين:

الأول: عُني بالجانب النظري، بدراسة ظاهرة التكلس عموما من حيث المفهوم والتسمية وتاريخ ظهورها عن طريق استقراء النصوص الشعرية من العربية الفصيحة التي تؤكد وجود هذا الاستعمال (التكلس) .

أما المبحث الثاني فقد جاء ليبرهن على صحة الفرضية المفسِّرة لهذه الظاهرة عن طريق الكشف عن اتساع استعمالها وبيان معانيها الإيحائية المقامية العميقة، ما يدلّ على قصدية استعمالها في النصوص القرآنية والشعرية الفصيحة.

المبحث الأول : مفهوم الوحدة النحوية المتكلسة، وبيان تاريخ التكلس :

1ـ مفهوم الوحدة النحوية :

يُمثل مفهوم الوحدة النحوية(Syntagment)فكرة مهمة ومركزية لا يمكن فهمها في العربية إلا بعد معرفة طبيعة لغتنا واختلافها عن اللغات الأخرى؛ ذلك أنّ اللغات تنقسم ـ

من حيث التحليل والتركيب لمعاني وحداتها النحوية ـ على قسمين(1) :

أولها: اللغات التحليلية Analytical وهي التي تعبّر عن المعاني النحوية بكلمات منفصلة. ومنها الانجليزية، إذ تعبّر عن لفظة: (سنكتب) العربية بـ:We will write.

ثانيها: اللغات التركيبية Synthetic تجمع عدة معانٍ نحوية في لفظة واحدة، ومنها العربية تجمع في لفظة (سنكتب): زمن المستقبل في (السين)، والإيماء إلى جماعة المتكلمين الذين يقومون بفعل الكتابة ومعنى المضارع في (النون)، ومعنى حدث الكتابة المعجمي في لفظة (كتب)، التي لفظة (كتبَ)، معنى زمن المضي بعلامة حجمها صفر(2)، والإيماء لفاعل مفرد غائب مذكر أو جماعة ذكور، نحو: (كتب الولدُ/ الأولادُ)، فضلا عن المعنى المعجمي.

وتتجسد بعض الوحدات النحوية العربية بصور ندركها بالخيال؛ لأنها لا تتجسد بوساطة (كلمات/ أشكال)، المفرغة من المعنى الدلالي المعجمي .

وتتسم الوحدات النحوية بخاصتين(3) :

أولاهما : التماسك الشكلي بحيث لا تسمح لأيّ عنصر أجنبي أنْ يتخلل بنيتها، إذا كان حجمها أكثر من مفردة حرة، نحو وحدة المفعول لأجله في قولنا: (كتبتُ لزيدٍ/ لإقناعه بالسفر)، فـ(لإقناعه بالسفر) وحدة نحوية متماسكة شكليا؛ لأننا لا نستطيع أنْ نضع أيًّا من عناصر الجملة: (كتب، أو التاء، أو لزيد) بين عناصر وحدة المفعول لأجله من دون أنْ تتفكك وتصبح غير مفهومة.

ثانيتها : تمتلك الوحدة النحوية نوعًا من الاستقلالية الوظيفية، وأشهر وظائفها هي: وظيفة الاسم، ووظيفة الفعل، ووظيفة الربط بينهما .

وقد تأتي وحدات نحوية كبيرة يمكن أن تحلّ بين مكوناتها عناصر غير أجنبية من دون أنْ يؤدي ذلك إلى لبس، نحو الوحدة النحوية الواردة في قولنا: (يستطيع أنْ يكتبَ + زيدٌ)، فـ (يستطيع أنْ يكتب) وحدة نحوية تسمى عبارة الفعل؛ وهي تؤدي وظيفة الفعل لإمكان حلول وحدة مفردة مكانها نحو: (كتب)، ولكن يمكن أنْ يتخللها الفاعل فنقول:

(يستطيع ـ زيدٌ ـ أنْ يكتبَ)؛ لأنه عنصر غير أجنبي.

2 ـ أحجام الوحدات النحوية المتكلسة :

تتخذ عموم الوحدات النحوية في العربية أحجاما مختلفة تبدأ من الصفر، ثم تأخذ حجم المقطع القصير (الحركة الإعرابية)، وتنتهي بمركب يتألف من عدد من المفردات بحسب ما ذُكِر آنفا. لكن الصيغ المتكلسة الملتبسة بالنواسخ لا يمكن أنْ تأتي بحجم الصفر، وعليه يمكن وصف بنية الوحدات النحوية المتكلسة بالتقسيم الآتي :

أ ـ وحدة نحوية بحجم المقطع القصير: وهي الضمّة التي تدلّ على مخالفة الصيغ المتكلسة لصيغ النواسخ؛ لأنّ النواسخ تنصب كلاّ من المبتدأ والخبر، أو أحدهما، فإذا جاءت (كان) مثلا غير ناصبة للخبر، فإنّ الضمّة تدلّ على تكلس (كان).

ب ـ وحدة نحوية متكلسة متألفة من (كلمة/ شكل) واحدة حرة، لم تلتصق بها وحدة أخرى، نحو: (كان، وإنّ، وأنّ) وغيرها.

ج ـ وحدة نحوية متكلسة تتألف من (كلمتين/ شكل) أو أكثر إحداهما حرة والأخرى أو الأخريات مقيّدة بها، نحو: (إنّه، وكأنّه، وأظنّه)، فـ(أظنّه) تتألف من (فعل + فاعل + ضمير نكرة)، والضمير لا يعود على معرفة، فهو ليس أحد مفعولي (ظنّ).

وفسّر سيبويه هذه الصيغة بمعادلتها بالآتي: (أظنّه = الظنّ ظني)، وهو يريد وصف تحوّل معنى الظنّ إلى يقين، ثم لحظ أنّ هذا التقدير مُلبس؛ لأنّه يقوي معنى الظن الأصلي، فعادله بالآتي: (أظنّه = أظنّ ذاك) وشرح لفظة (ذاك) بأنّها نكره لا تشير إلى شيء، وذلك قوله: ((فإذا قلت: "زيدٌ أظنّ ذاكَ عاقلٌ"، كان أحسن من قولك: "زيدٌ أظنّ ظنّي عاقلٌ" و(ذاك) أحسن؛ لأنّه ليس بمصدر، وهو اسم مبهم يقع على كلّ شيء))(4).

د ـ وحدة نحوية متكلسة تتألف من وحدتين حرتين أو أكثر: وهذا المركّب الحرّ له خصائص مختلفة عن خصائص الوحدات المدمجة، إذ يمكن أنْ يكون متماسكًا شكلا فلا يتخلله عنصر آخر من عناصر الجملة، نحو وحدة: (ظنّ زيدٌ)، فهذه الصيغة لا يمكن أنْ

يتخللها أحد ركني الجملة؛ لأنّ حلول المفعول المرفوع مع التكلس مُلبس، إذ يُصبح المفعول فاعلا، فلا يجوز أنْ نقول: (ظنّ عمرو زيدٌ عاقلٌ)، ونحن نريد لفظة (زيدٌ) فاعلا للظن.

وهناك وحدات نحوية متكلسة توجب أنْ يتخللها أحد ركني الجملة الأم، نحو: (إنّ... اللام...)، نحو قوله تعالى:(إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ)(5)، إذ نلحظ أنّ المبتدأ (هذان) حلّ بين لفظتي الصيغة المتكلسة.

3ـ تاريخ تكلس الوحدة النحوية الملتبسة بالنواسخ :

أصبحت فرضية تغيّر اللغات من المسلَّمات التي لا جدال فيها، وأنّ التغيير يشمل كلّ مستويات اللغة(6): الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية المعجمية، فضلا عن تغيّر النظام المقامي الذي يرد فيه التلفظ، ونختزنه في ضمن خبرتنا غير اللغوية، فتغيّر تأويلنا للعلامات؛ لأنّ التأويل يتوقّف على رؤيتنا للكون المحيط بنا وعلى تجربتنا الحياتية ودرايتنا الموسوعية، بمعنى أنّ علاقة الكلمة بمدلولها ليست رهينة قاعدة مضبوطة ونهائية، وإنّما رهينة السياق أو المقام الذي أُدرجت فيه، والسياقات والمقامات متنوعة وغير متناهية(7)؛ لذلك قيل : إنَّ اللغة التي لا تتغير هي لغة ميتة .

ويرجع علم اللغة الحديث أسباب التغيّر إلى عاملين رئيسين(8): أولهما: النشاط الفردي المتمثّل في ارتكاب الأفراد للأخطاء في أثناء تداولهم للغة، وثانيهما: النشاط الاجتماعي، الذي يساعد على موت كلمة ما تدريجيًا؛ لأنّ عدد الذين يتداولونها يتضاءل؛ لذلك تظهر تغييرات ذات أهمية ثانوية، وتكون اختيارية تدريجية، وأخرى حاسمة ومؤثرة في النظام، فتميّز بين كلام جيلين (9) :

الجيل الأول : يميل إلى الاحتفاظ بالصيغ الأقدم .

الجيل الثاني : يميل إلى الصيغ الأحدث .

ويكشف المنهج التاريخي أنّ نحو العربية الفصيحة قد مرّ بمرحلة حاسمة تخلّت فيها عن فعل الكينونة المساعد في جملتها التي كانت تشبه الجملة الخبرية الاسمية الانجليزية

الوحيدة، ويتضح ذلك في الجدول الآتي :

ت	الجملة	الاسم/معرفة	الفعل المساعد	الخبر/نكرة
1	الجملة الانجليزية	The pen	is	red
2	الترجمة الحرفية	القلم	يكونُ	أحمر
3	الترجمة الحديثة	القلم	xxx	أحمر

ولدينا جملة عربية قديمة مطابقة للترجمة الحرفية تظهر في الشاهد الآتي :

أنـــتَ تكـــونُ ماجـــدٌ نبيـــلُ إذا تهـــبُّ شمـــألٌ بليـــلُ(10)

فجملة: (أنت تكونُ ماجدٌ) برفع (ماجد) جملة قديمة، تتألف من ثلاثة مكونات: (مبتدأ + فعل كينونة رابط نكرة ومعنى الزمن + خبر)، أمّا الحديثة: فهي : (أنتَ ماجدٌ) بحذف فعل الكينونة .

وقد رصد سيبويه (ت180هـ) عددا من جمل هذه المرحلة الحاسمة التي تأتي فيها أفعال الكينونة رافعة لأخبارها، ولا تحتاج إلى اسم كـ(كان) المألوفة، فضلا عن فقدانها لفكرة الزمن؛ لذلك قدرّها سيبويه بـ(إنّه) مهما كان تصريفها الزمني: (كان، أو يكون) أو حتى (ليس) التي فقدت معنى النفي في هذه المرحلة من التغيّر؛ بمعنى أنّ هذه الصيغ تكلّست على معنى واحد هو : (ثبت بما لا يقبل الشك) .

تُفسِّر مقاربة سيبويه لهذه الأدوات انسجام بنية جملتها المرفوعة الخبر التي تخالف سلوك (كان) وأخواتها الناسخة، فضلا عن أنّ تركيب (إنّه) يصوّر معنى الصيغة المتكلسة وهو التوكيد المطلق. ومن أمثلة سيبويه قول الشاعر:

إذا مُتُّ كان الناسُ صنفانِ: شامتٌ وآخـرُ مُـثنٍ بالذي كنـتُ أصـنعُ(11)

وقول الشاعر:

هي الشــفاءُ لدائي لــو ظفــرتُ بهــا ولــيسَ منهــا شــفاءُ الداءِ مبــذولُ(12)

أي: إذا مُـتُّ (ثبت بما لا يقبل الشـكّ): النـاسُ صنفانِ: شـامت، ومُـثنٍ، وهـذه حقيقة لا يمكن إنكارها، وكذلك يؤكد تقرير الشاعر الآخر في صدر البيت: (هي الشفاء لدائي)، أنّ شفاء الداء حاصل لا محالة، فيما لو ظفر بها؛ أي: (ثبت بما لا يقبل الشك)، ولا وجود للنفي هنا.

وهذا المعنى هو ما وصفه سيبويه بهذه المقاربة التحليلية التي تضمن انسجام الشكل النحوي وإرادة معنى التوكيد المطلق غير القابل لنقض المخاطَب، وذلك قوله: ((أُضمر فيها [كان=إنّه]، وقال بعضهم:" أنتَ خيرٌ منهم"، كأنّه قال:"إنّه أنتَ خيرٌ منهم"))(13).

ويمكن ضمّ بيت حسان بن ثابت شاهدا ثالثا على هذه الظاهرة، وذلك قوله :

كأنّ ســــلافةً مــــن بيــــتِ رأسٍ يكــــونُ مِزاجُهــا عســــلٌ ومــاءُ(14)

ومقاربة سيبويه التحليلية: (كان، يكون، ليس =إنّه) تحمل معنى التوكيد وتضمن رفع الخبر شكلا، فضلا عن خلوها من معنى الزمن، ولكنّ هذه المقاربة فُهِمتْ خطأً عند النحاة التقليديين الذين جاءوا بعد شيخهم، فأسسوا أسطورة (ضمير الشأن)، أو (ضمير القصة) الذي عدّوه اسما لـ(كان، ويكون، وليس) المتكلسات، والجملة من (المبتدأ والخبر) المرفوعة الركنين في محل نصب، قياسا على تركيب (كان) وأخواتها الناسخة .

ثم سنّوا قواعد للمتكلمين من الأحياء والأموات الذين تكلموا بخلاف قواعدهم، قال الهروي(ت415هـ): ((ولا يجوز أنْ تقول: "كان زيدٌ قائمٌ" على إلغاء (كان)؛ لأنّه إذا تقدّمت لم يجزْ إلغاؤها، فإذا توسّطت جازَ إلغاؤها على قياس (ظننتُ) وأخواتها، فيجوز:"زيدٌ ـ ظننتُ ـ منطلقٌ"، ولا يجوز :"ظننتُ زيدٌ منطلقٌ"؛ لأنّه إذا تقدّم في صدر الكلام قويَ فلم يلغَ، كما أنّ القسم يُلغى إذا توسط أو تأخّر، ولا يُلغى إذا تقدّم...))(15).

والشواهد الفصيحة السابقة تُبطل هذا الادعاء بشأن (كان) المتكلسة الملغاة. أما بشأن (ظنّ) وأخواتها فسيبطله بيت كعب بن زهير:

أرجـــو وآمـــلُ أنْ تـــدنو مَوّدتُهـــا وما إخـالُ لدينـا منـكِ تنويـلُ(16)

ما يثبت خطأ قياس أسلوب (كان) و(ظنّ) المتكلستين على أسلوب القَسَم؛ لذلك فسّرها سيبويه بما تيسّرَ لديه من أدوات علمية فقال: إنّها ((لهجة حجازية))(17)، والصحيح ما بيّنه المنهج التاريخي أنّ هذه الظاهرة تمثّل مرحلة تطورية حاسمة في بنية الجملة العربية، أنتجت ما اسميناه بـ (الوحدات النحوية المتكلسة) التي لم تهجرها اللغة نهائيا بعد أنْ تخلّت عن وظيفتها السابقة؛ وإنّما أعادت توظيفها لمعاني مقامية؛ لذلك عرفت الصيغ المتكلسة ظاهرةً في جميع اللغات وعُرِّفت بأنّها: نمط أو صيغة جاهزة، أو وحدة نحوية أُعيد توظيفها بعد أنْ فقدت كلّ تعبيراتها بتواتر غير اعتيادي (18) .

ومن هذا التعريف العام يمكن أنْ نعرّف الوحدة النحوية المتكلسة الملتبسة بالنواسخ(19) بما يأتي: هي وحدة نحوية فقدت معناها الوظيفي النحوي الأصلي نتيجة لتطور اللغة، فأُعيد شحنها بمعنى مقامي (تداولي) هو التعبير عن صدق نقل الخبر بحيث لا يمكن للمخاطب نقضه. وبعبارة موجزة: إنّها تعبّر عن خبر مؤكد تأكيدا مطلقا، أغفلها النحو التقليدي، تقابل الأخبار التي يمكن أن يشكك فيها المتكلم، التي صِيغت بفرضيات البلاغة القديمة، من ذلك سؤال الكندي للمبرد قال: ((إنّي أجد في كلام العرب حشوا، إذ يقولون: عبدُ اللهِ قائمٌ، ثم يقولون: إنّ عبدَ اللهِ قائمٌ، ثم يقولون: إنّ عبدَ اللهِ لقائمٌ، والمعنى واحد، فأجابه المبرد، بل المعاني مختلفة، فقولهم: عبدُ اللهِ قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إنّ عبدَ اللهِ قائمٌ، جواب سؤال سائل، وقولهم: إنّ عبدَ الله لقائمٌ، جواب عن إنكار مُنكر قيامه))(20) .

وباكتشاف الصيغ المتكلسة، أصبحت العلامة المميزة للشك والإنكار مع النواسخ كلها هو تغيير حركة المبتدأ أو الخبر أو كليهما من الرفع - وهو الأصل - إلى النصب، وأنّ عدم تغيّر الحركة الإعرابية عن أصلها هي العلامة المميزة للتوكيد المطلق بالصيغ المتكلسة، يعزز ذلك شروط مقامية، حتى يصبح الخبر غير قابل لمعيار الصدق والكذب.

أما منهجية تحليل الوحدات النحوية المتكلسة، فتنطلق من المسار البنيوي

الشكلي، يليه المسار الدلالي، ويليه المسار المقامي (التداولي) الذي يمثل سقف هذا الأنموذج، بما ينشط الكفاية التأويلية لطرفي الاتصال، لتكوّن المسارات الثلاثة بنية تجعلنا نتبع الخطوات الآتية :

أولاها : فحص البنية النحوية عن طريق ملاحظة الحركة الإعرابية عن أصلها(الرفع) إلى النصب الذي يظهر بدخول الأدوات النواسخ على الجملة الخبرية، أما إذا دخلت الأداة الملتبسة بالنواسخ على الجملة ولم تغيّر حركاتها إلى النصب دلّ ذلك على تكلس الأداة.

ثانيتها: النظام الدلالي المعجمي، فالظن مثلا: ((اسم لِمَا يحصل عن أمارة ومتى قويت أدّت إلى العِلم، ومتى ضعفتْ جدًا لم يتجاوز حدّ التوهم، ومتى قويَ، أو تُصوَّر تصوُّرَ القويّ استعمل معه (أنّ) المشددة، و(أنِ) المخففة منها. ومتى ضَعُفَ، استعمل (أنِ) المختصة بالمعدومين من القول والفعل))(21)، ومعنى (أنِ) المختصة بالمعدومين من القول والفعل، عودة إلى المعنى المقامي الذي يحكم على الأشياء التي لا تنطق ولا تفعل بأنّها لا تدلّ على أمارة علم أو يقين .

ثالثتها : مراعاة معاني النظام المقامي، الذي يدلّ على استحالة تكذيب المخاطَب لخبر المتكلم كأن يكون الخبر يشير إلى مرجع ماثلٍ أو مستقرٍ بين يدي المتخاطبين. ويظهر هذا في تمييز (إنّ) المتضمنة لمعنى حدث التوكيد، والأحداث يمكن أن تُثبَتَ ونفيها هذا من جهة، و(أنّ) التي تنصهر مع ما بعدها بمصدر فتظهر في الخيال كأنّها اسم (جثة)، نحو: (علمتُ أنّ زيدًا قادمٌ = علمتُ قدومَ زيدٍ)، فـ(فقدوم زيد) تُتَصوَّر في الذهن كأنّها موضوع العلم، والموضوع جثة أو مُسمًّى يحدد مرجعه بنفسه، فهو مُثبت أبدًا ولا يمكن نفيه؛ لأنّه يمثل وجود؛ لذلك يمكن أنْ نشير إليه باسم الإشارة (ذاكَ)، قال سيبويه: ((أمّا "إنّ" فهي اسم، وما عملت فيه صلة لها، كما أنّ الفعل صلة لـ (أنْ) الخفيفة، وتكون (أنْ) اسما. ألا ترى أنّك تقول: "قد عرفتُ أنّك منطلقٌ" فـ "أنّك" في موضع اسم منصوب كأنّك قلت: "قد عرفتُ ذاكَ". وأما "إنّ" فإنّما هي بمنزلة الفعل لا يعمل فيها ما يعمل في "أنّ" كما لا يعمل في الفعل ما يعمل في الأسماء، ولا تكون "إنّ" إلا مبتدأةً، وذلك قولك: "إنّ زيدا منطلق"))(22) .

نستنتج مما تقدّم أنّ المعنى المقامي من القوة بمكان بحيث إذا صوَّر ثبوت الخبر بهيأة اسم (جثة)، فإنّ المخاطَب لا يقدر أنْ ينفي ثبوته الخبر المطلق، ولا قيمة للحركة الإعرابية بعد (أنّ) المفتوحة الهمزة، سواء ظهرت على الاسم المُعرب بالنصب: (أنّ زيدًا) أو اختفت على الضمائر المبنية: (أنّه) ما يؤكد تعاضد أبنية أنظمة اللغة: النحوية والصرفية والدلالية المعجمية فضلا عن نظام المقام في إنتاج معنى التكلس .

وتحذرنا هذه القاعدة من عدم التعويل على الحركة الإعرابية كثيرا؛ لأنّها قد تختفي من على كثير من مفردات اللغة المبنية، وإذا ظهرت يجب النظر إليها بحذر، فهي مع بعض الأدوات لا قيمة لها، ومع بعض الأدوات الأخرى تكون علامة مهمة مميزة تنقلنا من المحسوس إلى المُتصوّر، بما يسهّل ويسرّع علينا إدراك المعنى، بخلاف الانتقال من المعنى المُتصوَّر إلى المحسوس، الذي يكون صعبا ولا يتيسّر لكثير من الناس.

المبحث الثاني: تطبيقات (كان) المتكلسة وأخواتها الملتبسة بالنواسخ :

تتكلس (كان) وعدد من أخواتها: (أمسى، وأصبح)، فتضعُف علاقتها بالتركيب النحوي، فلا تغيّر حركة أخبار الجملة الداخلة في تركيبها، وعدم تغيّر حركات ركني الجملة الأم علامة محسوسة تدلّ على تكلس هذه الأدوات، التي تجعلنا نفكّر في معاني النظام المقامي الذي تمثله هذه الوحدات، التي لها مقامان :

1ـ المقام الأول : مقام إرادة التوكيد المطلق لخبر الجملة الأم بما لا يقوى المخاطّب على دحضه. وهذا يقرّب المعنى الخبري إلى معنى الإنشاء الذي لا يحتمل الصدق والكذب.

وقد تأتي (كان) المتكلسة ملتبسة بـ (كان) الناسخة التباسا قويّا نعرفه من الخلافات العقيمة التي أثارها النحاة التقليديون التي عقّدت الجمل الملتبسة بـ(كان) الناسخة؛ بتقديرات لم تُظهر معاني هذا الاستعمال الخاص.

2ـ المقام الثاني : مقام التعجب: ويأتي بأسلوب الخبر ويُستشف منه التعجب عند التمعّن فيه، وقد يأتي بأسلوب التعجب المعروف الإنشائي، فتكون (كان) معبّرة عن قوة التعجب؛ لذلك يوجد فرق بين قولنا: (ما أجملَ الربيعَ)، و(ما كان أجملَ الربيعَ)، فالجملة

الثانية تحتاج إلى مقام مختلف عن مقام الجملة الأولى علينا أنْ نتصوَّره أو نكتشفه من السياق اللغوي السابق أو اللاحق أو كليهما .

1ـ (كان) المتكلسة في سياق التوكيد الخبري المطلق :

تأتي (كان) في هذا السياق بمفردها، أو تتركب مع أسلوب الحصر بهيأة: (ما كان... إلا)، وكلتاهما يُبقي الخبر مرفوعا، وقد قارب سيبويه الأولى بـ (إنّه)، وقارب الثانية بـ (ما كان الأمر: ... إلا...)، وذلك قوله: ((قال بعضهم: "كان أنت خيرٌ منه"، كأنّه قال: "إنّه أنتَ خيرٌ منه"... كما قلت: "ما كان الطيبُ إلا المسكُ"، على إعمال: "ما كانَ الأمرُ: الطيبُ إلا المسكُ"، فجاز هذا إذ كان معناه: ما الطيبُ إلا المسكُ")) (23) .

وقد أساء النحاة التقليديون فهم تقنية سيبويه في تحليل الوحدات النحوية المتكلسة لتمييزها من النواسخ من حيث الشكل من دون أنْ يفرّط بالمعنى المقامي، وذلك عندما أعربوا أبنية المقاربات التحليلية بمطابقتها مع أبنية (كان) الناسخة، فأمسكوا بالشكل وأضاعوا المعنى، ولم يلتفتوا إلى كلمة سيبويه (كأنّه قال:...)، أي أنّ هذا الإجراء مجرد مقاربة للإدراك لا أكثر ولا أقلّ، أما مقايسة الوحدة المتكلسة بالناسخة فإنّه يفسد المعنى؛ لأنّه يشحن (كان) بفكرة الزمن، في حين تدلّ (كان) المتكلسة على إطلاق فكرة الزمن، لهذا تدلّ على الثبوت المطلق في كلّ الأوقات في الماضي والمضارع والمستقبل .

وقد ظهر هذا المعنى المقامي في قراءة لإحدى الجمل المنطوقة على لسان الخضر (ع) وهو يؤول لموسى (ع) أفعاله التي صَعُبَ عليه إدراك أسبابها البعيدة، وذلك في قوله تعالى:***(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا*وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا*فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا* وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)*** (24).

إذ قرأ أبو سعيد الخدري والجحدري(25) بتكلس (كان) في قوله تعالى: ***(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَانِ)***، برفع خبر الجملة (مؤمنان)، وقد قدّر النحاة التقليديون اسم (كان) بضمير الشأن، وخبرها الجملة الأم: (أبواه مؤمنان) قياسا على بنية (كان) الناسخة، لتسويغ الرفع من دون النظر إلى المعنى، ومنهم من قال إنّ القراءة لهجة جاءت على لغة بني الحارث بن كعب، و(مؤمنان) منصوبة بالألف بدلا من الياء، و(كان) ناسخة ناقصة، وليست متكلسة .

وكلا التوجيهين خيالي يُعنى بالشكل من دون المعنى، فضلا عن أنّ التوجيه الثاني يعدّ تجنيًا على القرآن الكريم، إذ يجعل عددا من الآيات الكريمة نازلة بلهجة قوم ومخالفة للغة المشتركة، في الوقت الذي كان الشعراء يراعون مقتضى حال مخاطبيهم في الأسواق الأدبية فيكتبون بلغة مشتركة لتشيع قصائدهم ويفهمها أكثر العرب!! .

فكيف تشتغل صيرورة معنى الصيغة المتكلسة فتعلمنا بأسرار الخطاب بوساطتها؟، وقد اشترطنا أنْ يكون معناها المقامي الصدق غير القابل لدحض المخاطَب. في الوقت الذي يتخذ فيه موسى موقف المشكك في أفعال صاحبه كلها، لذلك لجأ الخضر إلى تأويلها له قبل مفارقته، وكأنّه قال له: هذه تأويلاتي لما فعلتُه ولم تفهم أسراره وعليك التحقق من ذلك. فكيف يتحقق موسى ليزيل الشك عن نفسه؟، الجواب يجري التحقق من صحة المعلومة المبلغة بطريقتين هما :

أولاهما : التحقق من مطابقة التأويل للواقع المعيش من تقصي أخبار أصحاب السفينة، أو رؤية جلاوزة الملك يمسكون بسفينة المساكين ويتركونها؛ لأنها معطوبة بالعطب الذي أحدثه الخضر فيها، في حين يأخذون السفن الصالحة، وكذلك يمكن رصد الكنز عند بلوغ اليتيمين أشدّهما واستخراجهما له .

أما قضية تقصّي حقيقة الغلام المقتول الذي يمكن أنْ يفسد إيمان أبويه فيما لو بقي حيًا، فلا سبيل إلى التحقق منها؛ لأنّ المقتول لا يمكن إحياؤه لأغراض التحقيق .

ثانيتهما: اللجوء إلى خبرة المحقق الجنائي الحاذق الذي يستدلّ بالقرائن البسيطة

الظاهرة على الحقيقة الخفيّة، وهذه الطريقة موحى باللجوء إليها عن طريق تأويل الخضر لقضية قتله للغلام الكافر، التي تحيل موسى على استحضار تجربة خبرها سابقا حين قتل رجلا بريئا من كفرة آل فرعون كان معه في البيت الفرعوني، فكانت هذه القتلة سببا لهربه من ديار الكفر إلى ديار نبوّته، قال تعالى:**(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى* وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)** (26).

وهكذا تنتج قراءة التكلس معنى مقاميا فخما، يولّد أثرا بليغا في نفس موسى يمحو عنه أي إحساس بالذنب، بل ويُكبر من شأن فعلته بمساندة تأويل الخضر لقتل الغلام البريء، فيشعر موسى أنّ يده التي بطشت بالفرعوني تمثّل إرادة الله، وما الشعور بالذنب تجاه القتل إلا جهل بالأسرار الإلهية البعيد الغور، التي استمد معناها من صيغة (كان) المتكلسة بمعونة درايته الموسوعية وتجارب حياته، ولاسيما أنّ الخضر ختم تأويلاته بقوله: **(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)**، بمعنى أنّ الغلام الذي قتلته أنا كصديقك الفرعوني الذي قتلته أنتَ، كلاهما مسوّغ عن طريق تدخل الإرادة الإلهية، خشية أنْ يجتمعَ في بيت واحد مؤمن كافرٍ يُضلُّه بضلالهِ فيرتدّ إلى الكفر بعد الإيمان (27) .

وهذا المعنى الفخم المؤثر بعمق في نفس موسى (ع) لا يمكن أنْ ينكره في قضية استنكر بشاعتها بدءًا، لتذكّرِهِ قضية قتله لصديقه الفرعوني، ثمّ أصبحت البشاعة باعثا على العظمة لاحقًا، في قوله تعالى:**(فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)** (28) .

ومن الآيات التي وردت فيها (كان) المتكلسة قوله تعالى:**(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)** (29) .

اضطرب النحاة التقليديون في توجيه إعراب هذه الآية الكريمة أيّما اضطراب؛ لأنّ خبر جملة (كان) المزعومة منصوب، وتخيلوا أصل الجملة بالآتي: (عيسى صبي في المهد)، والخبر هو (صبي) و(في المهد) متعلق بالحدث المشتق من الجامد (صبي)، بمعنى

(متصابٍ، أو ممعنا في التصابي)، والاشتقاق يقرّب الخبر إلى الأذهان كما نشتق مستنوقٍ من (الناقة)، قال سيبويه: ((وقالوا في التحوّل من حال إلى حال هكذا، وذلك قولك: "استنوق الجَمَلُ، واستتيستِ الشاةُ"))(30)، وكذلك يمكن اشتقاق الصفات التي تدلّ على الثبوت من الأسماء، وذلك قول سيبويه: ((أخبرني من أثق به أنّه يقول: "مالَ الرجلُ، وقد مِلْتَ بعدنا، فأنتَ تَمالْ. ورجلٌ مالٌ: إذا كَثُرَ مالُه، وصَوِفَ الكبشُ، إذا كَثُرَ صُوفُه، وكبشٌ أصوَفُ... وكبشٌ صافٌ، ونعجةٌ صافّةٌ)) (31) .

إنّ نصب (صبيّا) على أنّه خبر (كان) الناسخة واسمها ضمير معرفة يعود على عيسى-(ع)، هو أحد الآراء التي قال بها الزمخشري(ت538هـ) وأيّدها كثيرون(32). والمعنى المتحصّل من هذا التقدير، فاسد ردّه فريق من المفسرين؛ لأنّ (كان) الناقصة تحمل فكرة زمن المضي، فيكون عيسى (ع) صبيّا في الماضي، وهو الآن ـ أي في زمن حوار اليهود مع مريم (ع) ـ ليس بصبي، وبهذا لا يكون له مزية علينا، قال المبرد (ت285هـ): ((تقول للرجل: كان فلان في المهد صبيا، فهذا لا ينفك منه أحد أنّه كان كذا، ثم انتقل))(33)، أي ثم كَبُرَ وتعلَّم إجادة الكلام .

وقد أحسّ الزمخشري بفساد هذه المقاربة فحاول تقليص زمن المضي وحصره بالماضي القريب بمحاولة مثقلة بالتنظير الخيالي وتمور بالالتباسات المصطلحية، وذلك قوله: (("كان" لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ يصلح لقريبه وبعيده، وهو ههنا لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام [أي المقام] وأنّه مسوق للتعجيب))(34).

ولم يقتنع الطباطبائي بهذا الرأي فقال: ((إنّ رأي الزمخشري وإنْ رفع الإشكال غير أنّه لا ينطبق على نحو إنكارهم، فإنّهم إنّما كانوا ينكرون تكلّمه من جهة أنّه صبي في المهد بالفعل، لا من جهة أنّه كان قبل زمن يسير صبيّا في المهد)) (35) .

وهناك كاشف آخر دقيق يكشف عن (كان) المتكلسة وهو إمكان حلول (هو) النكرة محلها، استعمله المفسرون يصبح فيه تقدير الكلام: (كيف نكلّم من ـ هو ـ في المهد صبيا)، ولكنّ عدم اكتشاف النحاة التقليديين للضمائر النكرة جعل فريق منهم يردّ هذه

التقنية التحليلية الواضحة؛ لذلك اضطربوا في قاعدة إحلال (هو) النكرة محلّها، لأنّهم جعلوا الضمير معرفة يعود على عيسى-؛ لذلك قال فريق منهم: (("كان" الزائدة لا يستتر فيها ضمير، فعلى هذا لا تحتاج إلى تقدير "هو")) (36) .

وهناك آراء عجيبة وغريبة(37) ذكرها النحاة والمفسرون، أجملَ الدرويش القول فيها بأنّ ((هذا كلّه دندنة في غير طائل، والأجود ما اخترناه، واختاره الزمخشري، ويأتي في المرتبة بعده، أنْ تكونَ زائدة، أما تقديرها تامة فبعيد جدًّا؛ لأنّ عيسى- لم يُخلق ابتداءً في المهد))(38).

إنّ أقرب الآراء إلى الصواب هو القول بزيادة (كان) شريطة أنْ نعدّ فكرة الزيادة تقنية تحليلية شكلية لا تلغي المعنى المقامي، قال ابن يعيش (ت643هـ): ((أنْ تكون زائدة؛ دخولها كخروجها، لا عمل لها في اسم ولا خبر))(39).

وقد توصل فريق من المفسرين المحدثين إلى معنى الصيغة المتكلسة لـ(كان) وهو الثبوت المطلق بعد أنْ نحوّا سفاسف النحو التقليدي عن أذهانهم، ومنهم الطباطبائي بقوله: (("كان" جيء بها للدلالة على ثبوت الوصف لموصوفه ثبوتا يقضي له...))(40).

وكذلك قال الشيرازي: ((إنّ هذه الكلمة [كان] تشير هنا إلى ثبوت ولزوم وصف موجود)) (41) .

إنّ توصّل المفسرين المحدثين إلى المعنى المقامي عن طريق الحدس غير مقنع علميا، فضلاً عن أنّه لم يحلّ مشكلة نصب لفظة (صبيًّا)؛ لذلك علينا إيجاد طرائق علمية تجنبنا إشكالات المقاربات التي توصلت إلى المعنى المقصود بطرائق غامضة، وأهمها: التي ولّدها الضمير (هو)، لذلك سنرفعه من الجملة، ونرفع (كان) أيضا بحكم إقرارنا بزيادتها للتوكيد المطلق، ليسهل علينا فهم معنى (صبيا) النحوي، الذي إذا قيل إنّه (حال)؛ فإنّه يحتاج إلى إسناد تام قبله؛ أي جملة كاملة يمكن استقلالها كالآتي :

ت	إسناد مستقل	حال
1	جاءَ زيدٌ	راكبًا
2	في المهد عيسى	صبيًا

كثيرون هم الذين قالوا بزيادة (كان) ونصب (صبيّا) على أنّه (حال)(42)، وكثيرون هم الذين لم يفهموا معنى الحال جيّدًا، بدليل أنّي لم أجد ردًّا على هذا التقدير الذي يفسد المعنى. فالحال صفة مؤقتة تحدث الآنَ في أثناء حدوث المسند الأصلي للجملة الأم السابقة عليها، فالحال شبيهة بالمفعول فيه، قال ابن جني(ت392هـ): ((ألا ترى أنّ قولك:"جاء زيد ضاحكا" في معنى: جاء زيد في حال ضحكه، فاستعمالك ـ هنا ـ لفظ (في) و(على) يؤنسك بالوقت والظرفية))(43). فـ(راكبا) صفة مؤقتة تحدث في أثناء المجيء، أما قبل المجيء وبعده فلا، وكذلك (صبيا) إذا قلنا إنّها حالٌ، فإنّها تقتضي- أنْ يصير عيسى- (ع) صبيا في حال استقراره في المهد، أما قبل استقراره في المهد فهو كبير السنّ، وكذلك يفقد هذه الصفة عند إخراجه من المهد!!

وهنا يجب أنْ نوجه إعراب لفظة: (صبيا) في الآية الكريمة التي رفضنا أنْ تكون حالاً، ونميل إلى إعرابها مفعولا لأجله، وقد حلّ ركنا أساسيا من ركني جملة فعلية، أي التي: (يتقدّمها المسند) بهيأة المشتقات؛ التي تؤدي وظيفة المسند، وقد سماها القدماء بـ (أشباه الأفعال) (44) .

لكنّ هذه الجملة ذات تصميم خاص لم يكتشفه أحدٌ ـ بحسب اطلاعنا ـ يكون فيها المسند إليه هو (المُسبِّب) لحدث يستدعي مُسندا هو النتيجة، وقوام هذه الجملة يظهر في التحليل الآتي :

ت	مقام المتكلم	المسند (نتيجة)	الفعل المساعد	المسند إليه(سبب)
1	أقرّ بـ	تأديبي الغلامَ	لكونه/ لأنّه	في الصفِ مسيئًا
2	عجبًا ممن أشار إلى	تكليمنا عيسى	لكونه/ لأنّه	في المهد صبيًّا

فالمسند هو الحدث الذي جاء نتيجةً، بهيأة عبارة: (تأديبي الغلامَ، وتكليمنا عيسى)، وقد أطلقنا على المسندين وصف عبارة؛ لأنّهما لا يؤلفان جملة مفيدة، فهما بمنزلة الفعل الذي يحتاج إلى فاعل، أو مسند إليه، الذي جاء بهيأة عبارة أيضا: (في الصفِ مسيئا، وفي المهد صبيا)، والفاعل هو المسبب لحدث التأديب، والعجب من حدث التكليم، وهو متضمن في اسم الفاعل: (مُسيء، ومتصابٍ)، أي ممعنا في الإساءة، وممعنا في التصابي، الذي أوضحنا سابقا أنّ الجامد (صبي) يتضمن معنى الحدث .

2 ـ تطبيقات المقام الثاني : مقام التعجب :

أ ـ مقام التعجب الإنشائي الواضح : وفيه تدخل (كان) المتكلسة بين البنى المؤلفة من عدة مفردات متلازمة متماسكة البنية، فتأخذ موقعا مختلفا عن موقع (كان) الناقصة، لذلك تُعْرِبُ عن نفسها بأنّها زائدة للتوكيد بسهولة، نحو ورودها بين الجار والمجرور، قال الهروي: ((كان" زائدة للتوكيد لا اسم لها ولا خبر، قال الشاعر:

سُراةُ بـــني أبي بكـــرٍ تســـامى على ـ كان ـ المُسَـوَّمةِ العِـرابِ(45)

فخفض المُسَوَّمةَ على إلغاء (كان)، أراد على المُسَوَّمةِ العِرابِ؛ لأنّ حرف الجر لا يدخل على الفعل))(46).

لذلك ذكر المالقي (ت702هـ) البيت السابق شاهدا في باب التعجب، وعدّ (كان) حرفا وليس فعلا، وذلك قوله: ((" أصبح وأمسى" وردتا زائدتين في التعجب خاصة، فيكونان إذّاك حرفين؛ لأنّ الأفعال والأسماء لا تزاد، وإنّما تزاد الحروف، وإنْ كان اللفظ للفعل، كما زادوا (كان) في هذا الباب في قول الشاعر...))(47)، (البيت السابق).

وأوضح منه تقرير الألفية للوحدات المتكلسة الذي استقرأ مواقعها في أسلوب التعجب، إذ ((تتعين للزيادة إذا وقعت في حشو الكلام، كوقوعها بين (ما) وفعل التعجب، نحو: ما كانَ أحسنَ زيدًا، وما كانَ أصحَّ عِلْمَ مَنْ تقدّم... ولم يرد غيرها من أخواتها إلا (أصبح، وأمسى) فيما شذّ، من نحو قولهم: ما أصبحَ أبردَها، وما أمسى أدفأَها!!... وبين المسند والمسند إليه، كقوله: "أوَ نبيٌّ كانَ موسى"؟!!))(48).

وعلى هذا الأساس نحصل على تمييزين ملموسين لـ (كان) المتكلسة في هذا الباب:

أولها : عدم تغيير حركة الخبر إلى النصب.

وثانيها : تغيير حركة (المبتدأ) إلى النصب، أسوة بصيغة التعجب المسبوق بـ(ما)، نحو: (ما أصبحَ أبردَها!!) .

ونصب المبتدأ أسلوب تعجب نادر، نسميه أسلوب التعجب الخبري، نحو: (ما كانَ زيدًا نشيطٌ!!). وهذه الجملة توجد نظيراتها في القرآن الكريم سنبحثها لاحقا.

ب ـ مقام التعجب الخبري : ويُعرف من حركة نصب اسم الجملة الخبرية الأم، بخلاف ما تعمله (كان) الناقصة، وتلتمس علامات هذا المقام عن طريق ملاحظة أدوات أهمها: الاستفهام الإنكاري، وأداة الحصر (ما... إلا)، وقد وُصِفَ هذا الأسلوب في شرح ابن عقيل في باب التعجب، ويُعرف بزيادة (كان) حشوا أيضا، لكن بين ركني الجملة الخبرية، وذلك ما يظهر في الشطر الثاني للنص السابق .

وأما مثال الثاني (ما كان... إلا..) فيظهر في قوله تعالى: ***(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)*** (49)، وقوله: ***(مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)*** (50).

اضطرب النحاة التقليديون اضطرابا كبيرا في توجيه حركة نصب المبتدأ بعد (كان) ابتداء من سيبويه الذي استدل بهذه الظاهرة على إمكان مجيء اسم (كان) نكرة محضة، وخبرها معرفة للضرورة (51)، فظهرت مشكلتان :

أولاهما : مشكلة تنكير المبتدأ الذي حقه أن يكون معرفة.

وثانيها : مشكلة تعريف الخبر الذي حقه أن يكون نكرة .

وجعله الزمخشري في باب (القلب)، الذي وضع له ابن هشام(ت761هـ) تعريفا بقوله: هو ((أنْ تجعل المعرفة للاسم والنكرة الخبر، نحو: كان زيدًا قائما، ولا يعكس إلا في

الضرورة، ومن فنون كلامهم القلب وأكثر وقوعه في الشعر))(52).

وقيل في تأويلها آراء غريبة وعجيبة سردها محقق كتاب المقتضب في هامشه(53)، ومنها قول ابن يعيش: ((إن شئتَ رفعتَ الأول [جوابُ قومه، وحجَّتُهم]، وإذا نصبت الأول كان (أنْ) مع الفعل في تأويل اسم مرفوع، وإذا رفعت الأول، كان في تأويل اسم منصوب؛ لأنّ (أنْ) والفعل في تأويل معرفة... والتقدير: "إلا قولهم"...)) (54) .

وهذا خطأ جسيم؛ لأنّ الوحدة النحوية: (قولهم) مثل: (ظنّهم، واستطاعتهم) وغيرهما من الوحدات التي لا يتمّ بها خبر مفيد، فهي أفعال شبه مساعدة، لا تؤسس لمسند جملة؛ فضلا عن أنّ المصدر المؤول (المعرفة) في وصف ابن يعيش، يفكك الجملة إذ لا تنعقد جملة مفيدة من معرفتين نحو: (زيدٌ عمرو)؛ لذلك يتعيّن أنْ يكون خبر الجملتين القرآنيتين هو مقول القولين، وهما الخبران الواضحا المعالم: (اخرجوا آل لوط، وائتوا بآياتنا)، إذ تظهر خصائص الخبر فيهما وهما: الفعلية والتنكير.

وهكذا يتضح ركنا الجملتين القرآنيتين الأساسيين بالجدول الآتي الذي يُبيّن الفعل شبه المساعد(55) (أنْ قالوا) :

مبتدأ	فعل شبه مساعد	الخبر
جوابُ قومِ لوطٍ	أنْ قالوا	أخرجوا آل لوطٍ
حجَّتُهم	أنْ قالوا	ائتونا بآياتنا

وقد أوردت الآيتان الصيغة المتكلسة (كان) في سياق: (ما... إلا) ليصبح تركيب الوحدة المتكلسة من ثلاث وحدات: (ما كان... إلا)، في أسلوب خبري قريب جدًّا من أسلوب التعجب ويقوي هذا الزعم حركة نصب المبتدأ كالآتي :

ـ ما كان (جوابَ قومِ لوطٍ إلا ...).

ـ ما كانت (حجَّتَهم إلا ...).

وعليه تكوّن حركة نصب المبتدأ علامة التفات أسلوبية جاءت بسبب تحوّل صيغة الخطاب الخبرية من خطاب الغيبة (دعوة لوط للإصلاح)، إلى أسلوب التعجب الخبري (جواب القوم بطرد المُصلِح)، يليه تدخّل المتعجب (الله تعالى) لحسم النزاع بإنجاء النبي وإهلاك قومه، قال تعالى : ﴿... فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ*وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾(56) .

وهو أسلوب تعجب خبري يجعل جواب القوم للدعوة الإصلاحية مستفزا لله ولرسوله في وقت واحد، بخلاف قراءة الرفع للأعمش(57)، والحسن وابن أبي إسحق(58)، التي تُبقي الجملة خبرية، يكون فيها المعنى استفزازا للنبي فقط، ويبقى الله تعالى مُخبرا ومراقبا لمدى صبره على جواب قومه، وهذا هو معنى رفع المبتدأ. ثم لا يتدخل الله تعالى حتى تحين لحظة إخراج القوم لنبيهم .

وبهذه الطريقة يمكن تبيان المعاني المقصودة في كلّ الآيات الكريمة والأبيات الشعرية المتكلسة التي وردت في مصادر النحو والتفاسير بسهولة، فضلا عن الأقوال النثرية الفصيحة التي ذكرها سيبويه ولم يتطرق إلى معانيها، نحو: ((من كان أخاك"!! ... كما قال بعضُ العرب: "من كانت أمَّكَ!!"))(59)، ولا يراد بها الاستفهام، وإنّما يراد معنى: أثبت لك من كان أخاك، أو أمَّك، أنا أم غيري بحسب التجربة التي خضتها إذ تخلّى عنك أخوك الحقيقي وأمُّك الحقيقية ووقفت أنا إلى جانبك موقف الأخ أو الأمّ!! عن طريق البينة الآتية :

ـ يكون (متكلسة) + مبتدأ منصوب + خبر مرفوع.

ويتضح مما تقدّم أنّ الصيغ المتكلسة من بقايا أفعال الكينونة القديمة التي تخلّت عنها العربية، وتنازع على إعادة توظيفها لمعنى مقامي جيلان؛ كذلك وردت في الشعر والشواهد القرآنية بإقرار النبي (ص) للقراءات بأنّها وحي، إذ وردت في مصادر الحديث قول رسول الله (ص): ((إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسّر ـ منه))(60)، وفيه دليل إعجازي؛ إذ تتكامل فيه قراءة الجمهور (باللغة المشتركة) التي تمثل الجيل الجديد، مع قراءة القراء التي تمثل الجيل السابق، ما يؤدي إلى ثراء النص.

الخاتمة :

خلُص البحث إلى جملة من النتائج لعلّ أهمها ما يأتي :

1 ـ إنّ قياس (كان وأخواتها) المتكلسات بـ(كان وأخواتها) النواسخ، يعدّ من أخطاء النحاة التقليديين؛ لأنّهم اعتمدوا في تمييز الوحدات النحوية على أشكالها فحسب، من دون مراعاة وظائفها، لذلك فسَّروها بطرائق ملتوية أفقدتها معانيها المقامية المقصودة، وأربكت الدرس النحوي بتوجيهات غير مقبولة، وفي أفضل الأحوال فُسِّر ـ التكلس بأنّه لهجة، أو ضرورة أو خطأ اقتضته طبيعة الشعر، وقد أثبت البحث أنّ الشعراء لم يرتبكوا كلّ هذا؛ لأنّهم استعملوا ظاهرة أسلوبية مستقلة تؤيدها شواهد من آي الذكر الحكيم.

2 ـ كشف البحث عن أساليب عربية تحمل هندسة أسلوبية جديدة لم تكن معروفة من قبل، استثمرت ظاهرة التكلس منها: أسلوب التعجب الخبري مقابل التعجب الإنشائي، ويشترك التعجبان بمعيار المعنى غير القابل للتصديق والتكذيب، ولكنهما يختلفان في البنية.

3 ـ أثبت البحث أنّ القراءات القرآنية، ولاسيما التي تتصل بهذه الظاهرة تعدّ ضربا من ضروب الإعجاز، وربما كانت بعض القراءات تحمل معاني أعمق من قراءة الجمهور، بسبب تنشيطها للكفاية التأويلية التي تنتج معاني سيميايّة إيحائية عميقة تستند إلى ثقافة المؤول الموسوعية .

الهوامش والمراجع والمصادر:

(1) ظ: أسس علم اللغة، ماريو باي: 151 .

(2) يعبّر وصف الصفر عن الغياب الدال لعنصر لغوي يستعمل مميزا يطبق على الوحدات التي تؤلف نظاما، ويُعرف من مقابلته مع الوحدات الموجودة التي تؤدي وظيفة نحوية عامة واحدة، نحو وحدات (أنيثُ) التي تدلّ على زمن المضارع، فيكون حذفها دالا على زمن المضي في الفعل المجرد من الوحدات المحسوسة (أنيت). ظ: معجم اللسانيات، جورج مونان: 290 .

(3) ظ: المعجمية وعلم الدلالة المعجمي، آلان بولغير: 60 .

(4) الكتاب، سيبويه: 181/1.

(5) سورة طه: 63.

(6) ظ: المعجمية وعلم الدلالة المعجمي، آلان بولغير: 49 .

(7) ظ: السيميائية وفلسفة اللغة، أمبرتو إيكو: 29 .

(8) ظ: اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش: 260 .

(9) ظ: م.ن: 266 .

(10) الرجز لأمّ عقيل فاطمة بنت أسد. شرح ابن عقيل:261/1، أوضح المسالك، ابن هشام: 205/1 .

(11) البيت للعجيز السلولي. الكتاب، سيبويه:118/1، الأزهية، الهروي : 119 .

(12) البيت لهشام أخي ذي الرمة. الكتاب، سيبويه:119/1، الأزهية، الهروي : 200 .

(13) الكتاب، سيبويه : 118/1 .

(14) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، البرقوقي:59، وفيه(مزاجُها)بالرفع، وبالنصب في: الكتاب، سيبويه:88/1، المقتضب، المبرد: 92/4، الأصول في النحو، ابن السراج : 67/1، مغني اللبيب، ابن هشام: 591/2، شرح التسهيل، ابن مالك : 338/1، الأشباه والنظائر، السيوطي: 285/1 .

(15) الأزهية، الهروي:201، ظ: شرح ابن عقيل:38/2 .
(16) شرح التسهيل، ابن مالك: 61/1، و8/2، شرح ابن عقيل:38/2 .
(17) الكتاب، سيبويه:121/1 .
(18) ظ: معجم اللسانيات، جورج مونان:154 .
(19) النواسخ أدوات نحوية تدخل على المبتدأ والخبر، فتبدّل حكمهما نتيجة لإنشاء علاقات نحوية جديدة مع الوحدة النحوية الداخلة على الجملة الأم وتغيّر حركاتهما الإعرابية كليهما أو أحدهما من الرفع إلى النصب بحسب نوع الناسخ. ظ: المحيط، الأنطاكي:3/2 .
(20) مفتاح العلوم، السكاكي:171 .
(21) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني:539 .
(22) م.ن: 139/3 .
(23) الكتاب، سيبويه:118/1-119 .
(24) سورة الكهف: 79-82 .
(25) ظ: الأزهية، الهروي:199، الكشاف، الزمخشي: 692/2، البحر المحيط، الأندلسي: 193/6 .
(26) سورة طه: 40-41 .
(27) ظ: الكشاف، الزمخشري: 692/2.
(28) سورة الكهف:74.
(29) سورة مريم: 29.
(30) الكتاب، سيبويه: 183/4.
(31) م.ن: 513/3.
(32) ظ: الكشاف، الزمخشري: 17/3، مجمع البيان، الطبرسي: 48/6، البحر المحيط، الأندلسي: 132/6، إعراب القرآن وبيانه، الدرويش: 604/16 وغيرهم.
(33) المقتضب، المبرد: 117/4، ظ: الأزهية، الهروي: 198، التبيان، الطوسي: 122/7، الميزان، الطباطبائي: 45/14.

(34) الكشاف، الزمخشري: 17/3 .
(35) الميزان، الطباطبائي: 45/14.
(36) المقتضب، المبرد: 117/4، التبيان في إعراب القرآن، الكعبري: 181/2، لسان العرب، ابن منظور: 195/12 (كنن) .
(37) ظ: التبيان، الطوسي: 122/7، مجمع البيان، الطبرسي: 416/6، الكشاف، الزمخشري: 17/3، التبيان في إعراب القرآن، العكبري: 181/2، البحر المحيط، الأندلسي: 232/6 .
(38) إعراب القرآن وبيانه، الدرويش: 604/16 .
(39) شرح المفصل للزمخشري: ابن يعيش: 347/4 .
(40) الميزان، الطباطبائي: 45/14.
(41) الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي: 438/9 .
(42) ظ: المقتضب، المبرد: 117/4، الأزهية، الهروي: 198، التبيان في إعراب القرآن، العكبري: 181/2، إعراب القرآن وبيانه، الدرويش: 604/16.
(43) سر صناعة الإعراب، ابن جني:645/2.
(44) ظ: الأصول في النحو، ابن السراج: 130/1-131، شرح التسهيل، ابن مالك: 264/1، شرح ابن عقيل: 62/2، شرح الحدود النحوية، الفاكهي: 135.
(45) لم يعرف قائله، وهو في الأزهية، الهروي:298، رصف المباني، المالقي:140، شرح ابن عقيل:169/1.
(46) الأزهية، الهروي: 197.
(47) رصف المباني، المالقي: 140.
(48) شرح ابن الناظم: 99-100، شرح ابن عقيل: /261، الأشباه والنظائر، السيوطي: 57/1، و77.
(49) سورة النمل: 56.
(50) سورة الجاثية: 25.

(51) ظ: الكتاب، سيبويه: 88/1.
(52) مغني اللبيب، ابن هشام: 911/2.
(53) ظ: المقتضب، المبرد: 92/4، هامش(1)، شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش: 341/4.
(54) شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش: 342/4.
(55) الأفعال الشبه مساعدة أو الناقلة Verb support هي التي ليس لها وظيفة إسنادية، ووظيفتها الأساسية تمنح المكوّن الإسنادي الاسمي معلومات الزمن والشخص وحتى المظهر، نحو: (قام زيدٌ بجولة تفقدية للمدينة)، إذ يمكن حذف الفعل المساعد والاكتفاء بـ (قام بجولة) وتبقى الإسناد ممكنا ومفيدا. وقد تنظّم العلاقات المفاعلية (الفاعلية والمفعولية)، وهو ما يظهر في المسند (عالم) وفاعله الدلالي (عمرو)، بعد الفعل المساعد أو الناقل نحو: (ظنُ زيدٌ/ عمرا عالمًا)، و(قال زيدٌ: عمرو عالمٌ). ظ: قاموس علوم اللغة، فرانك نوفو:333.
(56) سورة النمل: 57-58
(57) ظ: الإيضاح، أبو علي الفارسي: 117، الكشاف، الزمخشري: 379/3.
(58) ظ: البحر المحيط، الأندلسي: 112/7.
(59) ظ: شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش: 341/4.
(60) صحيح البخاري: 54/8، سنن الترمذي: 264/4.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.
1. اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، المجلي الأعلى للثقافة، بلا، ط2، 2000م.

2. الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد النحوي الهروي(ت415هـ)، تحقيق عبد الغني الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق(1391هـ/1971م).
3. أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة وتعليق، د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب،القاهر، ط8،(1419هـ/1998م).
4. الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي (ت911هـ)، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط2(1428هـ/2007م).
5. الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج البغدادي(ت316هـ)، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط4(1420هـ/1999م).
6. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، سوريا،ط1، (1424هـ/2003م).
7. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،ط1(1423هـ/2002م).
8. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري(ت761هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث، بيروت، ط5، 1966م.
9. الإيضاح، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي(ت377هـ)، تحقيق د. كاظم بحر المرجان، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1(1432هـ/2011م).
10. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بابن حيان الأندلسي(ت745هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط2(1428هـ/2007م).
11. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله العكبري(ت616هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1419هـ/1998م).

12. التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي(ت460هـ)، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
13. رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي (ت702هـ)، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (د.ت).
14. سر صناعة الإعراب، ابن جني(ت392هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وشركائه، طبعه البابي الحلبي، مصر، 1954م.
15. سنن الترمذي، محمد بن عيسى السلمي الترمذي (ت279هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط2، (1403هـ/1983م).
16. السيميائية وفلسفة اللغة، امبرتو أيكو، ترجمة د.أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان،ط1، 2005م.
17. شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، بدر الدين محمد بن جمال الدين محمد بن مالك(ت686هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط2، 2010م.
18. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري،ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق ابن عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الغدير للطباعة والنشر والتجليد، قم، ط1(1429هـ).
19. شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي- (ت672هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، وطارق فتحي السيد،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1(1422هـ/2001م).
20. شرح الحدود النحوية، جمال الدين عبد الله بن أحمد بن علي بن محمد الفاكهي(ت972هـ)، حققه وقدمه د. محمد الطيب الإبراهيم، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1(1417هـ/1996م).

21. شرح المفصل للزمخش، لأبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي(ت643هـ)، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه، د. أميل بديع يعقوب،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1(1422هـ/2001م).
22. شرح ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس،1980م.
23. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري(ت256هـ)،دار الفكر،بيروت،طبعة بالأوفسيت عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول،1401هـ.
24. قاموس علوم اللغة ، فرانك نوفو، ترجمة صالح الماجري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2012م.
25. الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بـ"سيبويه" (ت180هـ)، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه:د.اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1420هـ/1999م).
26. الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت538هـ)، حققها على نسخة خطية:عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي،مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، (1421هـ/2001م).
27. لسان العرب، ابن منظور(ت711هـ)، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط3، (د.ت).
28. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي(من أعلام ق6هـ)، تحقيق محسن الأمين العاملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان،ط1، (1415هـ/1995م).
29. مجمع الزوائد، الهيثمي (ت807هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،(1408هـ/1988م).

30. المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، مكتبة دار الشرق، شارع سوريا، بيروت،ط1(1392هـ/1972م).
31. معجم اللسانيات، جورج مونان، ترجمة د.جمال الحضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط1، (1433هـ/2012م).
32. المعجمية وعلم الدلالة المعجمي، مفاهيم أساسية، آلان بولغير، ترجمة د. هدى مقنص، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط2، 2012م.
33. مفتاح العلوم، أبو يعقوب بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي(ت626هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1403هـ/1983م).
34. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (توفي في حدود 425هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية،بيروت، مطبعة أميران، قم، ط3،(د.ت).
35. الميزان في تفسير القرآن،محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة دار المجتبى للمطبوعات، قم،إيران، ط1، (1425هـ/2004م).